مدينة بونة وموقعها الاستراتيجي في العصر الوسيط.

مرزوق بتة
أستاذ مساعد -جامعة مسيلة

مقدمة:

إنّ البحث في المدن التاريخية له أهمية كبيرة وبالغة في الدراسات التاريخية عموماً والأثرية خصوصاً، ففي الجانب التاريخي لا يمكن أن تقوم مدينة في الكون، دون أن يكون لها جانب من جوانب التأثير في مجريات الأحداث قلّ ذلك أو كثر[1]، ولهذا اخترنا في هذه الدراسة المدينة بوصفها قراراً تتخذه الأمم للسكنى والسكينة والمأوى[2]، وقطباً دائراً لحركة الإنتاج والتوزيع والتبادل الثقافي والاقتصادي، وملتقى للتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية، فهي إذن الخلية الأساسية في حضارة كل مجتمع بشري في الماضي والحاضر[3].

ومن المدن التاريخية هيبون أو بونة أو بلد العنّاب، فهذه المدينة لها رصيد تاريخي عميق[4]، فهي عبارة عن مدينة وميناء من أهم الموانئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط في الفترتين القديمة والوسيطة، ولعله لم يكن هذا ليحدث لولا موقع مدينة بونة الاستراتيجي على البحر، ومركزها عند ملتقى خطوط المواصلات والتجارة البرية والبحرية[5].

ولكن ما يهم في هذا المقال هو كيف أكدت مدينة بونة وجودها بصورة جعلت منها أحد الحواضر الرئيسية في نهاية العصر الوسيط.

1. موقع مدينة بونة:

تقع مدينة بونة القديمة على بعد ثلاثة أميال من بونة الحديثة[6]، وهي محصورة ما بين وادي بوجمعة الأسفل من الشمال الغربي ومجرى وادي سيبوس الأسفل من الجنوب الشرقي[7]، وهي تتربع على

---

[1]- قريان (عبد الجليل)، التراث الأثري عمارة وعمران، مجلة الثقافة، ع16، الجزائر، أكتوبر 2007، ص117.

[2]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1960، ج1، ص617.

[3]-العربي (إسماعيل)، المدن المغربية، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1984، ص07.

[4]- دحماني (سعيد)، من هيبون– بونة إلى عنابة تاريخ تأسيس قطب حضري، منشورات مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، عنابة، 2007، ص19.

[5]-العربي (إسماعيل)، المرجع السابق، ص ص 11، 12.

[6]- البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، ص54.

[7]- دحماني (سعيد)، هيبون الملكية، الوكالة الوطنية للآثار التاريخية، دار عزيزة، الجزائر، 1991، ص13.

مساحة قدرت ب 60 هكتار حسب تقويمات بعض المؤرخين وعلماء الآثار أمثال stéphane Gsell[8]، وهي التي عرفت في القرن 05هـ/ 11م باسم مدينة زاوي[9].

تقع مدينة عنابة في الجزء الشرقي للساحل الجزائري على بعد 600كلم من الجزائر العاصمة[10]، التي تبل شواطئها مياه الخليج المسمى بها، وتتكئ غربا على منحدرات جبال الإدوغ، وتنفتح شرقا وغربا وجنوبا على سهول عنابة، وإضافة إلى هذا يستقبل الخليج بقرب المدينة وادي سيبوس وطوله 225م.

تتسم المدينة بنوع تضاريسها بين الجبال والسهول، حيث نجد الجبال به متنوعة متباينة وملتوية، منها جبال الإدوغ التي ترتفع إلى 1008م بجبل بوزيزي، ويرمي ظله على المدينة والبحر الأبيض المتوسط، وتضاف إلى الجبال الأساسية شرقاً ربى بوقنطاس، وربى البلاليطة التي تليها ربى بوحمرة، ومنحدرات عنابة ورأس الحمراء، التي تقدم بفضل إقامة الطريق طنفاً جميلاً يشرف على الجون على امتداد عشرات الكيلومترات[11].

وتكوّن المنحدرات النازلة من الإدوغ، مجموعة من المدرجات الممتدة من ممر ابن آوى إلى منارة رأس الحمراء، وإلى مختلف الجونات التي تكوّن شواطئ لطيفة ومرافئ صغيرة مثل: البرج الجنوي والشاطئ اللازوردي ونشير إلى روابي بوحمرة التي تنتهي شمالاّ إلى تلين، تل الأرطغان (34م)، وتل القديس أوغسطين (55م) امتدت بينهما مدينة هيبون.

وتنفتح المدينة شرقاً وغرباً وجنوباً على سهلين وهما: السهل الصغير والذي يمتد بين سفح الإدوغ وربى بوحمرة، وهذا السهل امتداد لسهل الخزارة، وكذا السهل الكبير الذي يسقيه وادي سيبوس ووادي بونموسة اللذان يجريان من الجنوب إلى الشمال، وهذا السهل الذي بنته رواسب الأنهار، والموجود جنوب وشرق المدينة، قد انتهى توطيده جنوباً على جانبي وادي سيبوس، أما شرقاً فتتصب مياه وادي بونموسة وغيرها في مصب مشترك يدعى المفرق[12].

إضافة إلى الجبال والسهول، فإننا نجد الخليج، حيث يوجد الجوف القاري الممتد على 23.5كلم عند مصب المفرق، وتهيأ صخرته قاعدة متينة، أين تستقر ديدان المرجان، وهذه المنطقة غنية بالقنبري الذي اشتهر به الخليج الذي يمتد من رأس الحمراء غرباً ورأس بوفحل شرقاً، والغني بالمآويالمتيحةللإتقاء وللدفاع.

---

[8]- حساني (مختار)، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ج3، ص50.

[9]- البكري، المصدر السابق، ص54.

[10]-Derdour (Hassen), Annaba, 25 siècles de vie quotidienne et de luttes, Batna, p04.

[11]- دحماني (سعيد)، هيبون الملكية، مرجع سابق، ص ص11، 12.

[12]- دحماني (سعيد)، هيبون الملكية، المرجع السابق، ص ص11، 12.

أما الميناء فيقع بالواجهة الغربية من الخليج، ويتمتع بالملاحة خاصة بالمنطقة الممتدة من رأس الحمراء إلى مصب وادي سيبوس، مروراً بجون القلعة الجنوبية، وجون الخروبة، وجون بونة، حيث يشكل هذا المجموع الموقع الميناءي الكبير لمدينة بونة، فكل هذه المآوي بها إمكانية التزود بالماء، ومن نقاط الماء عين عشير بمنطقة رأس الحمراء، وعيون منطقة القلعة الجنوبي، ووادي القبة بمنطقة خليج المرجان والخروبة، وبئر النثرة على ساحل خليج بونة، الذي يمونه وادي سيبوس ووادي بجيمة[13]، فكل هذه النقاط في مأمن من الرياح الغربية، خاصة عند تقلب الطقس وجميعها مراسي ممكنة حسب ساعة الوصول، وحسب الأحوال الجوية، فتتمتع المدينة بموقع مينائي جيد.

ويسيطر هذا الموقع المينائي على الخليج، إذ هو الممر المحتوم للملاحة ورأس القنطرة للجواز من الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط إلى الحوض الشرقي منه، ويبعد أقصى جنوب جزيرة سردينيا بمسافة 234كلم عن رأس بوفحل، فالخليج مدخل للمضيق السرديني–الصقلي الإفريقي- الذي يوجد مخرجه بعد مرسى قليبية بتونس[14].

أما المناخ فمدينة عنابة تقع في المناطق المعتدلة والدافئة بين مدار السرطان والقطب الشمالي، هذه المنطقة تتابع نظام الفصول الأربعة ولها اختلاف في درجة الحرارة صيفاً وشتاءاً، مع اختلاف طول النهار أو الليل، وهذا الاختلاف يتبعه اختلاف في المناخ، النبات والتربة والمياه والأمطار[15].

2. بونة-هيبون في الوصف الجغرافي والمخلفات الأثرية:

لا تقدم مختلف الروايات التاريخية عن بونة في شهادات نهاية القرن 4هـ/ 10م، وصفا لها، وكل ما ورد هو أنّ المدينة توجد بشرياً في المجال الجغرافي لقبيلة أوربة، حتى جاء ابن حوقل الذي أعطى وصف موجز لمدينة بونة، وهي لا تزال بموقع هيبون، فمن الراجح أن بونة التي وصفها هي بونة القديمة التي استمر عمرانها أيام حكم الأغالبة ثم الفاطميين[16].

وفي كتابه الذي حرره بين (375 _385هـ/ 988 _ 998م) يشير المقديسي إلى بونة قائلاً: " وبونة بحرية مسورة"[17]، فإشارة المقديسي هنا تتعلق بالمخطط الأول الذي وصفه ابن حوقل، وأهميته تكمن في ذكره السور المحيط بالمدينة.

---

[13]- دحماني (سعيد)، من هيبون، المرجع السابق، ص278.

[14]-Dahmani (Saïd), "le port de buna au moyen Age", actes du 115eme congres des sociétés savantes, Avignon colloque sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du nord,1990, p361.

[15]- جندلي (محمد بن إبراهيم)، عنابة في سياق التاريخ وعمق الجغرافيا، مطبعة المعارف، عنابة، 2007، ص ص44، 45.

[16]- دحماني (سعيد)، من هيبون، المرجع السابق، ص256.

[17]-المقديسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة المثنى، بغداد، ط2، 1906، ص226.

وتؤكد الشهادة الثانية أي وصف البكري لبونة واقع استمرار إعمار موقع هيبون، فلا يترك نص البكري مجالاً للشك في خصوص وجود بونة القديمة، فيعلم أن المدينة كانت تسمى مدينة سيبوس وكذلك مدينة زاوي[18].

وبآثار مدينة بونة القديمة أدلة على استمرار إعمار الموقع القديم أثناء القرون الأولى من السلطة الإسلامية، فلقد مكنت الحفريات من استخراج مصابيح ولقى فخارية تعود للفترة الفاطمية والزيرية، وكذلك بعض الصنوج، ويبدو أن بونة كانت تتموقع من القرن الثامن إلى القرن العاشر الميلادي الموافق للقرن 2 و4هـ، بالجانب الجنوبي الشرقي من هيبون القديمة، ويطابق ذلك في الواجهة البحرية (المطلة اليوم على الطريق الوطني رقم16)، وامتداده شمالاً، وكذلك جنوباً على حافتي السّكة الحديدية الرابطة بين عنابة وقسنطينة، وتشرف على الكل ربوة الأرطغان، وعلوها 22م، أين يوجد المتحف، وبسفح الربوة على الحد الغربي لحي الواجهة البحرية، عثر على ما يبدو أنه جزء من سور يمثل دفاعياً ثانياً، فإن تحقق أنّه جزء من الأسوار يكون ذلك تأكيداً لما أورده المقديسي.

وأخيراً يلاحظ بالمعلم _ذي الخمس السواري_ بقايا بناء نصف دائري على سطوح الفسيفساء، موجه إلى الجنوب جنوب شرق يوحي كأنه أثر محراب، وبالتالي ربما حول هذا المعلم إلى مسجد[19].

3. تخطيط مدينة بونة الحديثة:

أكدت رواية البكري كما ذكرنا سابقاً في جزئها الأول قيام استمرار هيبون تحت تسمية جديدة وهي بونة، ويخبر أن بونة تحولت على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال، ويسميها بونة الحديثة، ويشير البكري أنّها لا زالت على نهر الخليج، ويدقق طوبوغرافيتها ذاكراً أنّها على نشز منيع[20].

فالموقع الجديد أقيم على منحدر نازل من الإدوغ إلى البحر وهذا المنحدر المائل من الشمال والشرق نحو الجنوب والغرب يتراوح علوه من 32م إلى مترين أو ثلاثة وبالتالي فالمنحدر يشرف على الموضع السابق للمدينة وعلى السهل، فبونة القديمة وبونة الحديثة إذن الموقع نفسه ولكن الموضع هو الذي تغير فمتى خططت المدينة الحديثة[21].

كانت بونة مدينة تابعة للزيريين أولاً، حيث تمثل مركزاً استراتيجياً لا بدّ من مراقبته، خاصة عندما دبّ الانقسام بين حماد بن بلكين الذي أصبح سيد القطاع الغربي من الفضاء الصنهاجي ابتداء من

---

[18]- البكري، المصدر السابق، ص54.

[19]- دحماني (سعيد)، من هيبون، المرجع السابق، ص267.

[20]- البكري، المصدر السابق، ص55.

[21]- دحماني (سعيد)، من هيبون، المرجع السابق، ص286.

سنة 395هـ/ 1005م[22]، وباديس بن المنصور صاحب القيروان، ومثلما سهر حماد على مراقبة الحدود الغربية بالاعتماد على أشير ومليانة والجزائر، فكذلك سهر على تعزيز الحدود الشرقية بالاعتماد على مراكز منها بونة[23]. ويشير البكري بوضوح إلى مثال عن القيمة الإستراتيجية لبونة في نهاية القرن 5هـ/ 11م، قائلاً: "أن المدينة في نشز من الأرض منيع".

فبالنظر إلى الأهمية فهناك احتمال وقوع مرحلة أولى من احتلال الموقع الجديد أثناء القرن 4هـ/ 10م، ثم قويت حركة إعمار الموقع الجديد مع تولي الزيريين الحكم في إفريقية والمغرب الأوسط وخاصة في عهد المعزّ بن باديس وانتهت عمليات الإعمار بتشييد "السور" بعد سنة 450هـ/ 1060م، وربما أيام حكم الأمير الحمادي الناصر بن علناس الذي جعل من بجاية عاصمته الجديدة، ولا شك أنّه أمر بتعزيز بونة الحديثة ببناء الأسوار[24]، ويرجع سبب هذا الانتقال إلى سببين سبب استراتيجي إذ بعد أن عرفت مدينة زاوي فترة من رقي وازدهار بدأت تتعرض للغارات البحرية، وذلك نتيجة حلول النورمان بالسواحل الأوربية واتخاذهم جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا قواعد ينطلقون منها للإغارة على المدن الساحلية المغربية، فنتيجة لهذا الوضع اضطر سكان مدينة زاوي إلى طلب الأمان في مكان آخر حصين، تتوفر فيه مقومات الدفاع الضرورية، ولهذا كان تخطيط المدينة بموقع مرتفع يمكّن من الدفاع وحراسة الساحل والبر بفعالية[25].

ويذكر البكري السبب الثاني قائلاً: " إلا أنها يصّح بها السودان ويسقم البيضان"[26]، فبونة القديمة تقع على ارتفاع مترين أو ثلاثة، ومنذ بداية القرون الوسطى ظهرت حولها المستنقعات، نتيجة لما أحاط بها من مصبّ وادي بجيمة شمالاً، ووادي سيبوس جنوباً حيث بدأت أكوام الرمال وترسبات الطمي تحاصره من جراء فيضانات نهر سيبوس المتكررة[27].

بالإضافة إلى انتشار برك المستنقعات والمياه الآسنة على شكل حزام يطوق أسوار المدينة من جهة السهل، مما تسبب في كثرة الرطوبة وتردي الأحوال الصحية لسكان مدينة زاوي[28].

أما الموقع الجديد فيضع المدينة في مأمن من هذه المستنقعات ويحل جزئياً مشكلاً صحياً.

---

[22]-بورويبة (شيد)، الدولة الحمادية –تاريخها وحضارته، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص74.

[23]- دحماني (سعيد)، من هيبون، المرجع السابق، ص287.

[24]-دحماني (سعيد)، من هيبون، المرجع السابق، ص287.

[25]-سعيدوني (ناصر الدين)، ورقات جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني)، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ط1، 2000، ص499.

[26]- البكري المصدر السابق، ص55.

[27]- دحماني (سعيد)، من هيبون، المرجع السابق، ص14.

[28]-سعيدوني (ناصر الدين)، المرجع السابق، ص78.

4. السياسة الساحلية الحمادية والسيطرة على بونة:

استمرت بونة تحت سلطة الباديسيينالزيريين، وعرفت فترة من الرقي والازدهار في موضعها الجديد في عهد المعزّ بن باديس، ولكن في سنة 443هـ/ 1050م، شهدت بلاد إفريقية وصول الهلاليين الذين قضوا تدريجياً على الإمارة الباديسية الزيرية[29].

وبينما كان الغزو الهلالي يقضي على الدولة الزيرية في إفريقية فإن الدولة الحمادية بلغت أوج عظمتها مما أدى ذلك إلى تدفق سيل اللاجئين ولا سيما من العلماء وذوي الأموال، إلى قلعة بني حماد التي تمر بعهد من القوة والازدهار الثقافي، ولكن القلعة تتعرض هي الأخرى في هذه الفترة إلى الاختناق نتيجة لإقتراب الهلاليين منها، ولكي يتجنّب بني حماد مصير بني عمومتهم عملوا على نقل عاصمتهم من القلعة إلى مكان آخر يتحصنون فيه فأنشأ الأمير الناصر بن علناس مدينة الناصرية في سنة 457هـ/ 1064م، ووسع نفوذه على عدد كبير من المدن الساحلية[30]، وأصبحت الإمارة الباديسية لا تسيطر إلا على مدينة المهدية وناحيتها[31].

في حين نجد أن مدينة بونة استحوذ عليها قائد عربي من بني هلال هو أبو مسعود، والتي استسلمت بونة إليه في سنة 450هـ/ 1058م، ولكن في سنة 481هـ/ 1088م[32]، نجد أنّ بونة أصبحت تحت نفوذ السلطة الحمادية، ولكننا نجهل متى تم ذلك، وفي هذه المرحلة الجديدة شاركت بونة في الأحداث الداخلية للبلاد الحمادية الزيرية، فأثناء حكم المنصور بن الناصر (481هـ -498هـ/ 1088- 1105م) عاشت الدولة الحمادية ثورة بلبار عمّ الملك ووالي على مدينة قسنطينة، فسير المنصور إليه جيشاً بقيادة أبي يكنى بن محصن بن العابد وعقد له على قسنطينة وبونة، وقد تمكن هذا الأخير من القبض على بلبار ورجاله وأشخصهم إلى القلعة، وأقام والياً على قسنطينة وعين أخاه ويغلان مكانه على بونة[33].

وفي سنة 487هـ /1094م، خرج أبو يكنى عن طاعة المنصور وحاول جمع كتلة من الساخطين أعداء المنصور –أبي تميم والهلاليين والمرابطين- وكلّف أخاه ويغلان بالذهاب إلى المهدية لتسليم

---

[29]- إدريس (الهادي روجي)، الدولة الصنهاجية–تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من ق10 إلى ق12، ترجمة: الساحلي حمادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، ط1، 1992، ص245.

[30]- سالم (السيد عبد العزيز)، تاريخ المغرب الكبير (العصر الإسلامي)، دار النهضة العربية، بيروت، ج2، 1981، ص580.

[31]-بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص71.

[32]-إدريس (الهدي روجي)، المرجع السابق، ص310.

[33]-ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ج6، ص175. وأنظر أيضا: العربي (إسماعيل)، دولة بني حماد –ملوك القلعة وبجاية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص200.

بونة إلى تميم بن المعز الزيري الذي قبل هذا العرض، وعاد ويغلان إلى بونة مصحوباً بابن تميم وأبي الفتوح قصد استلام المدينة رسمياً باسم أبيه[34].

ومن ناحية أخرى تمكن أبي يكنى ويغلان من استمالة عدد كبير من الهلاليين، كما ربط الصلة بالمرابطين في المغرب الأقصى، ولقد بادر المنصور برد الفعل قبل اتساع رقعة الثورة، فوجه جيشاً إلى مدينة بونة من أجل استرجاعها، وتمكن الجيش من اقتحامها بعد محاصرتها لمدّة سبعة أشهر، وبذلك رجعت بونة إلى حكم الحماديين من جديد.

وإثر ارتقاء آخر الحكام الحماديين يحي بن عبد العزيز على العرش نصّب أخاه الحارث والياً على بونة، واعتماداً على هذا الموقع حاول الحارث تشجيع أخيه الملك يحي على الثبات والصمود أمام بروز الموحدين، وفتحهم لمدينة بجاية سنة 547هـ/ 1152م، ولكن يحي لجأ إلى بونة ثم إلى قسنطينة[35]، وبعد استيلاء الموحدين على القلعة، حاصروا بعد ذلك قسنطينة مما أدى إلى استسلام يحي بن العزيز سنة 547هـ/ 1152م[36].أما الحارث بن العزيز صاحب بونة، فإنه رفض الاستسلام للموحدين وفرّ إلى صقلية مستصرخاً صاحبها[37] وفي سنة 548هـ/ 1152م سار أسطول روجار إلى مدينة بونة، وكان المقدّم عليه فتاه فيليب المهدوي، فحاصرها واستعان بالعرب عليها، وأخذها في رجب سنة 548هـ فسبى أهلها وملك ما فيها، غير أنه أغضى على جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا بأهلهم وأموالهم إلى القرى، وأقام بها عشرة أيام[38].

وبعد إخضاع المدينة أعاد روجار الثاني ولاية بونة إلى الحارث، الذي قبل مقابل ذلك حماية الجند الصقلي، وهذا حسب شهادة الإدريسي: " فتحت بونة على يدي أحد رجال الملك روجار في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة... وبها عامل من قبل الملك روجار من آل حماد"[39].

وفي سنة 551هـ/ 1156م سار عسكر عبد المؤمن بن علي إلى مدينة بونة فملكها، وقتلوا عاملها الحارث[40]، وبالتالي زال حكم بني حماد بونة وأصبحت بونة من القواعد الهامة للأسطول الموحدي،

---

[34]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص176.

[35]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص176. إدريس (الهادي روجي)، المرجع السابق، ج1، ص327.

[36]- التيجاني (أحمد)، رحلة التيجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، ص334. ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص177.

[37]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص177.

[38]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، مج4، 2006، ص391.

[39]-الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر جزئي: صادق محمد حاج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، 154.

[40]- مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تصحيح: الفوربي البشير، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، ص117.

خاصة أنّه في عهد الموحدين أصبح أسطول الواجهة البحرية للمغرب أقوى الأساطيل الإسلامية من حيث التجهيز والقواعد البحرية، وعلى إثرها قامت بونة بعدّة اتفاقيات تجارية مع الدول الأوربية[41].

إلا أن هذا لم يمنع بونة من أن تتعرض لعدّة أحداث خلال هذه الفترة، بحكم تأثرها بالموحدين من جهة، وموقعها الاستراتيجي من جهة أخرى، فقد تعرضت لابن غانية المرابطي الذي كان له أخ يدعى يحي انطلق غازياً فاستولى على عدّة مدن ومن بينها مدينة بونة التي بعثت إليه بالولاء والطاعة سنة 1209م[42].

ولقد كانت ردة فعل الموحدين عنيفة حيث اتخذت شكل حملة عسكرية، قام بها الخليفة الموحدي الناصر، وحرص على استرجاع إفريقية من ابن غانية، وتمكن من استرجاع مدنه، وسلط عقوبات صارمة على سكانها الذين حاولوا بكل حماس الخروج عن طاعته، وقد شملت عملية التطهير كافة أنحاء البلاد ومن ضمنهم مدينة بونة[43].

5. الازدهار التجاري والفلاحي لبونة في العهدين الحمادي والموحدي:

إن موقع مدينة بونة ومميزاته الداخلية والخارجية، أي بكونها تطل على مداخل القنوات البحرية الرئيسية في البحر المتوسط الغربي، مع غناها بمنتجات البحر كالأسماك والمرجان، وبتكوينها الطبيعي كميناء محمي وبخلفيات عميقة وغنية اقتصادياً، قد رسم في الواقع خطوط علاقاتها مع العالم المتوسطي مع الأندلس المسلمة، وكذلك مع الدول المسيحية خاصة المدن الإيطالية[44].

فقد أصبحت مدينة بونة منذ القرن 04هـ/ 10م قاعدة هجومية، حيث كانت تخرج الجيوش منها غازية إلى بلاد الروم، وجزيرة سردينيا وما والاها[45]، ويبدوا أن هذا الدور الجهادي في علاقتها مع المسيحية المتوسطية، قد حافظت عليه بونة عبر الفترات التالية من تاريخها، كما أنها لم تفقد أبداً دورها التجاري كونها محطة تجارية هامة على خط المبادلات المشرقية المغربية، ومن ثم فقد كانت إحدى محطات العمل التجاري للأندلسيين فأكثر تجارها كانوا منهم[46].

---

[41]- دحماني (سعيد)، من هيبون، المرجع السابق، ص67.

[42]- المطوي (محمد العروسي)، السلطنة الحفصية–تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص06.

[43]-نشيفيك (روباربر)، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، تر: الساحلي حمادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، 1988، ص40.

[44]- الصباغ (ليلى)، عنابة بين اسمها وموقعها وعلاقتها مع العالم المتوسط حتى الاحتلال، مجلة الأصالة، العدد 34- 35، 1976، ص 137.

[45]البكري، المصدر السابق، ص55.

[46]-الصباغ (ليلى)، المرجع السابق، ص137.

ونتيجة لدورها الحربي والتجاري، انتقلت بونة إلى موقع دفاعي، حيث تعرضت إلى الضربات المضادة الناتجة عن النزاعات القائمة من أجل السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، إذ هاجم المدينة تكتل نظمته مدينة بيزة وجنوة الإيطاليتين وبروفانسا الفرنسية سنة 426هـ/ 1034م، واستولى عليها، وهناك نقيشة غير مؤرخة في كاتدرائية بيزة تخلد ذكرى لذلك العمل الباهر[47].

وبعد مضي قرن سنة 526هـ/ 1134م، قامت بيزة وبروفانسا بهجوم جديد على المدينة، كما احتل بونة جيش ملك صقلية روجار الثاني سنة 548هـ/ 1152م من طرف فتاه فيليب المهدوي[48].

ولكن على الرغم مما تعرضت إليه مدينة بونة بسبب موقعها من هجمات، إلا أنها بقيت مركزاً تجارياً مهماً، تتعامل مع العديد من المدن الأوربية بالتجارة فيها ومعها، وذلك من خلال إقامة معاهدات تجارية وقنصلية معها[49]. وكونوا على ما يبدوا جالية مسيحية تجارية، ونتج عن ذلك أن طلب البابا غريغوار من الناصر بن علناس الحاكم الحمادي بالموافقة على إقامة أسقفية مسيحية في بونة، وترك للنصارى حرية انتخاب أسقفهم، وذلك بتعيين الأسقف سرفاند سنة 1076م، وحينئذ انطلقت فترة طويلة تخللها عقد المعاهدات[50].

وفي العهد الموحدي كانت مدينة جنوة، من أوائل المدن التاريخية التي طرقت باب المعاهدات من أجل الحصول على امتيازات لصالح التجار والصيادين الجنويين في الموانئ ومنها مرسى بونة، وفي سنة 552هـ/ 1160م فتح عبد المؤمن بن علي بموجب معاهدة الموانئ ومنها ميناء بونة أمام الصيادين والتجار الجنويين، وفي سنة 556هـ/ 1166م، تحصلت بيزة على نفس الامتيازات، وفي سنة 578هـ/ 1186م، كان دور الصقليين في ذلك، وجددت المعاهدة مع بيزة يوم 11 أوت 1204م لمدة عشرين سنة، ومرسيليا التي سبق لها وأن ربطت علاقات مع السلطة منذ 530هـ/ 1138م، واصلت في عقد المعاهدات.

وتنظم مختلف هذه المعاهدات الحركة التجارية للمتعاملين الإيطاليين والفرنسيين، كما تحدد إقامة للرعايا الأجانب في الفنادق، فتقضي معاهدة 596هـ/ 11 أوت 1204م الممضاة مع بيزة في مادتها 20 و21 ما يلي:

المادة 20: فندق بونة: يقام أيضا فندق ببونة أين لا يقبل أو يؤوي إلا الأشخاص الذين يرخصون لهم ذلك.

---

[47]- أرسلان (شكيب)، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، مكتبة الحياة، بيروت، 1983، ص244.

[48]- الإدريسي، المصدر السابق، ص154.

[49]-Dahmani (Saïd), op-cit, p375.

[50]- الغنيمي (مقلد عبد الفتاح)، موسوعة المغرب العربي، مكتبة مدبولي، القاهرة، مج2، 1994، ص383.

المادة 21: في العادات المماثلة التي يجري بها العمل بتونس، وتتبع وتحترم في بونة نفس العادات الجاري بها العمل في تونس[51].

فذكر هذه المنشآت في مختلف المعاهدات يؤكد أن مرسى بونة كان من بين الموانئ التي توجد بالشرق المغاربي، التي تربطها علاقات تجارية وصيد بحري بالمدن الإيطالية وبجنوب فرنسا.

فالدول الأوربية التي كانت حاجتها الأساسية المواد الأولية تضمن منها بتجديد المعاهدات التجارية، وتتناول التجارة على الخصوص المواد الأولية، ومنتجاتالأرض[52].

6. المخلفات المعمارية: (جامع سيدي أبي مروان البوني):

لقد عرفت مدينة بونة ازدهاراً عظيماً في الميدان العمراني خلال العهد الحمادي ، ومن بين المباني التي شيدت بها خلال هذه الفترة من تاريخها نجد مسجد سيدي أبي مروان الذي مازال موجود إلى يومنا هذا، وفيما يخص تأريخ تأسيس هذا المسجد فإن المؤرخ أحمد بن قاسم البوني يذكر أن تاريخ بنائه يعود إلى سنة425هـ/ 1033م بناه رجل صالح يدعى أبو الليث، المتوفى سنة 450هـ/ 1058م[53].

كما أثبتت الدراسة العلمية التي قام بها جورج مارسي أن هذا المسجد بالفعل يرجع إلى العهد الزيري، وذلك من خلال تشابه مسجد سيدي أبي مروان بالجامع الكبير بالقيروان والمساجد التونسية، من حيث جناحه المركزي الواسع، ورواقه ذو القبتين الواقعتين على أعمدة مجتمعة، ومن خلال تشابهه بالمنشآت الفاطمية والصنهاجية من حيث طريقة طلاء القبب التي تعود إلى القرن 4هـ/ 10م، وكذلك قاعدة القبة المزخرفة بتضليعات متعرجة مثل قبة مسجد بني القهاوي بسوسة والذي بني خلال القرن 5هـ/ 11م[54].

ويؤيد رشيد بورويبة[55] ما توصل إليه جورج مارسي، أنّ بناء هذا الصرح تمإبّان حكم المعز، وذلك من خلال ما توصل إليه بفضل أعمال قولفان والهادي روجي إدريس من نتائج: أن أول أمير زيري بعد رحيل الفاطميين وهو بلكين أمضى حياته في ساحات المعارك ولم يكن له ميل إلى الهندسة، والمنصور ثاني أمير زيري اهتم بإفريقية التي أثراها بالكثير من الآثار، وأنّ باديس ثالث أمير زيري لم يهتم بالفنون نظراً لانشغاله بالحرب ضد الزناتيين، وأن إفريقية عرفت عهداً من السلام

---

[51]-Dahmani (Saïd), op-cit, p375.

[52]- دحماني (سعيد)، من هيبون، المرجع السابق، ص119.

[53]-البوني (أحمد بن القاسم)، التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف، تح: دحماني سعيد، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2001، ص73.

[54]-Marçais (G), l'architecture musulmane, d'occident, Tunisie, Maroc, Algérie, paris, 1954,pp 73, 74.

[55]-Bourouiba (Rachid), l'art religieux musulman en Algérie, s. n. e. d, Algérie, 1983, p72.

والازدهار تحت حكم المعز، فمن المحتمل جدّا أنّ بناء هذا المسجد تم خلال هذه الفترة[56]، وهذا يتناسب مع التاريخ الذي قدمه أحمد بن قاسم البوني في بناء هذا المسجد (425هـ/ 1033م).

يقع المسجد بأعلى منطقة من بونة، بالقرب من الزاوية الغربية للمدينة[57]، يبلغ طوله 36.50م، ويبلغ عرضه 19.60م، ويحتوي على بيت صلاة طولها 19.60م وعرضها يبلغ 19.20م، وصحن تحيط به أروقة من جهاته الأربع، وبيت صلاة جامع سيدي أبي مروان مبني على أعمدة رخامية مجلوبة من المباني القديمة تعلوها تيجان قديمة أو إسلامية[58].

وبني المحراب على شكل مقوس، وكانت تعلو قاعة الصلاة أصلاً قبتان إحداهما وجدت بوسط الرواق الداخلي، والثانية تتقدم سقف المحراب، وزين ظهر قبة الرواق القبلي بفصوص ملتوية ومع الأسقف، وعند الاحتلال الفرنسي حوّل المسجد إلى مستشفى عسكري مما أدى إلى إتلاف القبتين من أجل بناء قاعات علوية[59].

ولجامع سيدي أبي مروان مئذنة مبنية في الزاوية الشمالية الشرقية للصحن بجانب ضريح سيدي أبي مروان، وتشتمل هذه المئذنة على خمسة بروج موضوعة فوق بعضها البعض[60]. وبداخل المئذنة درج يصل إلى أعلاها، ومنه الوصول إلى قاعة صغيرة بمحرابها، وهذا نموذج نادر من وجود قاعة الصلاة بداخل الصومعة، وهيئة دهاليزها على مستويين تحت الأرض من جهة السطح، ومن الراجح أن الدهاليز استعملت كمخابئ ومستودعات، وهذا ما يبرهن على الدور العسكري لهذا المبنى الذي كان المسجد أحد مكوناته[61].

---

[56]-ibid, pp 25, 26.

[57]- دحماني (سعيد)، من هيبون، المرجع السابق، ص289.

[58]-بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص25.

[59]- دحماني (سعيد)، من هيبون، المرجع السابق، ص289.

[60]-بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص26.

[61]- دحماني (سعيد)، من هيبون، المرجع السابق، ص289.

اللوحة الأولى: بيت صلاة مسجد سيدي أبي مروان بعنابة.

اللوحة الثانية: محراب مسجد سيدي أبي مروان.